لا تقتلوا يوسف

طارق مصطفى حميدة

مركز نون للدراسات القرآنية

قال الإخوة في اجتماعهم:(ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين، اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين).

ذاك هو الحسد الذي يتكئ على الكبر، فهم يحسدونه لما يرون من تميزه الذي يحبب فيه من حوله، والذي يوحي بأن له مستقبلاً باهراً، والمزعج بالنسبة لهم أن يحوز هذه المنزلة على صغره وضعفه، حيث لا يرجى منه نفع ولا دفع، وبالأخص في بيئتهم البدوية، بينما هم (عصبة) أي جماعة أقوياء وأشداء مقارنة بيوسف وأخيه؛ فهم أكبر، وأكثر، وأقوى، والمنطق، كما يرونه، يقتضي أن يكونوا هم الأحب إلى أبيهم.

وهو المنطق الإبليسي ذاته حين يقول: (أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين)، فبما أن أصله أفضل من أصل آدم، كما يرى، فلا وجه لأن يسجد لآدم، ولسان حاله يقول: كان أحرى أن يؤمر آدم بالسجود لي، وليس العكس، والحاسد، كما لاحظنا في كلام إبليس يتطاول حتى على الله تعالى فيتهمه في حكمته، ومن ذلك المثل الذي يتردد على بعض الألسنة في العامية الفلسطينية والمصرية: أن الحلاوة تعطى لمن ليس له أسنان، والحلق لمن ليس له آذان، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

فالإخوة حين رأوا ما اعتبروه حباً زائداً في غير محله، ونعمة هم أولى بها، إذا بحسدهم ينتج سوء قول وسوء فعل: (إن أبانا لفي ضلال مبين اقتلوا يوسف)، الدعوة إلى القتل، إضافة إلى وصفهم أباهم بأنه في ضلال مبين، وما في ذلك من عقوق لمقام الأبوة، وإساءة لمقام النبوة.

(اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين)، اللافت للانتباه أن المتحدث أو المتحدثين، وهم يخطبون في باقي الإخوة، لا يقولون: لنقتل يوسف أو سنقتل أو لنقتلن يوسف، لكنهم يطلبون من غيرهم أن يفعلوا ذلك، فإذا كان هذا حال الأكثر عدوانية تجاه يوسف، فكيف بالبقية؟ ثم

يقول القائل ذاته أو صوت آخر (أو اطرحوه أرضاً) أي ارموه في أرض بعيدة ولا تقتلوه بأيديكم، فلعله يموت جوعا وعطشاً أو يكون فريسة للسباع، أو قد يظل حياً لكن بعيداً عنا، وهذا تراجع آخر، في الجلسة ذاتها.

والمفارقة الطريفة أن غايتهم من قتل يوسف إضافة إلى أن يخلو لهم وجه أبيهم، هي أن يكونوا من بعده قوماً صالحين!! فهل يقصدون بذلك التوبة من جريمتهم، كما يخدع الشيطان بعضهم فيجرئهم على المعاصي في شبابهم ويؤملهم في التوبة والصلاح عند الكبر؟ أم إنهم يرون في يوسف عائقاً لهم عن الصلاح وأنه مادام حاضراً فلن يمكنهم من الاستقامة والصلاح، ومعنى هذا أن قتله أو التخلص منه هو السبيل الوحيد لانتقالهم إلى الصلاح؟ وهل الأمر من قبيل: الغاية تبرر الوسيلة؛ كما وسوس الشيطان لآدم وزوجه: (ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين)، بمعنى أن تكون المعصية طريقاً لخير الدنيا بالخلود لآدم، وخلو وجه يعقوب لأبنائه، والمصلحة الدينية بأن يصير إخوة يوسف قوماً صالحين، ويصبح آدم وزوجه من الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون.

وهنا ينبري أحد الإخوة: (قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين): لا تقتلوا يوسف، ولم يتبعها بالقول: ولا تطرحوه أرضاً، فإن القتل بالمباشرة أو بالتسبب يعتبر قتلاً.

واللافت أنه أعاد ذكر اسم يوسف مع أنه يمكن الاستغناء عنه بالضمير لقرب العهد بذكره، فحيث سبق القول: (اقتلوا يوسف)، فيكفي أن يرد: لا تقتلوه وحسب، لكنه أظهر الاسم فقال: لا تقتلوا يوسف، وهو ما يدعوه البلاغيون: الإظهار في موطن الإضمار.

فمعنى كلام الداعين لقتله: اقتلوه لأنه يوسف وقد سردوا من قبل مسوغات ذلك، ومعنى قول قائلهم: لا تقتلوا يوسف: بل لا تقتلوه لأنه يوسف، وكونه لم يسرد أسباباً لذلك فلأن الأصل هو الحفاظ عليه، وعدم قتله، ولأن دواعي ذلك من الكثرة والظهور بحيث تصغر بمحاولة ذكرها وتعدادها.

والتعبير بِـ: (قال قائل منهم): يوحي بأن هذا القول يمثل عدداً لا بأس به من الإخوة الصامتين، وهو الرأي الذي انتهوا إليه فيما بعد.